بلاغة انفكاك النظم القرآني
عن عاداته التعبيرية

دكتور/ سعيد بن عثمان بن محمد الملا
الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها– كلية الآداب
جامعة الملك فيصل – المملكة العربية السعودية

ملخص:
ينفكُّ النظم المبين في القرآن الكريم عن طبائعه الأسلوبية التي سار عليها في تهادي مقاصده، كانفكاكه عن إطلاقات وتسميات التزمها، سواء في معادلات نظمية تتكرر، أو أجوبة وجزاءات وشُبه ترِد، أو فاصلات ينهي بها آياته الكريمة. وهذا لا يكون إلا في قضايا بالغة الأهمية للمخاطبين.
ومن القرآئن التي تدل على وجود الانفكاك في النظم القرآني مقارنة شواهده التي خرج فيها النظم عن ظاهر عاداته التي اختص بها، بمشابهاتها اللفظية في القرآن، تلك التي كانت موافقة للأعراف المشار إليها، فتكون بمثابة المتكأ الذي يستطيع مقارب النص أن يمسك بخيوط الأسرار عند الانفكاك الوارد. كما يقدم السياق معونة كبيرة لإدراك أسرار انفكاك النظم عن أعرافه التعبيرية إذ ينبئ عن مقتضيات الأحوال التي لها كل الأثر في بنائه.
وهناك أغراض مهمة للانفكاك النظمي في القرآن، لعلي في هذا البحث أن ألقي الضوء على شيء من ذلك، وأتلمّس أسرارًا بلاغية هدف النظم إلى تحقيقها وقصد تقديمها، وهذا لون من ألوان فرادته التي شاء الله بها أن يكون في طبقة من القول تكل دونها الهمم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
مفاتيح البحث: بلاغة النظم، عادات القرآن، انفكاك أسلوبي

The eloquence of the Quranic system's dissociation from its regular expressions

Dr. Saeed Othman Al-Mulla

Arabic Language and Literature Department - College of Arts, King Faisal University

Abstract:

Those who contemplate the systemic casting in the Holly Qur'an are fully aware that it expresses his eloquence in dazzling images, including those in which it dissociated from its regular style in conforming some particular meanings. As its disengagement from the usual labels and expressive expectations that it used to follow, either in repeated equations regularity, answers, and punishment or the ends of its holly verses.

In this research, I spot the light on some of these cases seeking rhetorical secrets that the system aimed to achieve and present as it is one of the reasons that make the Holly Qur'an unique and idiosyncratic till the end of time.

Keywords: rhetoric, rhythm , tendencies of the Qur'an, deviating of the usual style

مقدمة

لكل بيان أعرافه ولازماته الخاصّة، التي تكون بمثابة الميسم، والطابع الخاص له، إلا أنه قد ينفك – في محطات غير قليلة من مساراته – عن تلك السنن، سواء التي هي من أعراف الكلام العربي عامة، أو عاداته التي امتاز بها لأغراض خاصة بمقاماتها، ما يجعل البلاغيين يفترقون وقتئذ إلى شعب شتى، من تلمس بدائعه ومهايع عظمة سبكه.

وانفكاك القرآن عن أعرافه التعبيرية التي اعتادها نظمه العالي، كانت لأغراض بلاغية سيبين عنها هذا البحث بإذن الله.

ولا شكّ بأن هذا الانفكاك يشكِّل في ظاهره غالبًا خروج عن مناسبة الكلام، لكن بالتأمل ولطف النظر وإعمال الذهن يتبين الغرض الذي يفوق إثبات المناسبة على أهميتها، ولهذا فإنني لا أجد مسوغًا لبعض المفسرين الذين يدفعون بكل طاقتهم أمرًا يتعارض ظاهره مع التناسب، ولو أنهم فتشوا عن أسرار الانفكاك التعبيري كما صنع الحذّاق منهم لكان أولى؛ لأن المناسبة ولا شك متحصلة فيه، فهي سمة من سمات الكلام الرفيع، فكيف بأعلى نظم عرفته العربية، ووقف أساطين البيان أمامه، لا يحرون قولًا، وأنّى لهم!

وربما دفع هذا البعض حرصهم عند فقدان المناسبة إلى التخبط في التماسها، وفي ظني أن اللجوء لمثل ذلك هو مسلك يهرع إليه الناظرون في البيان القرآني عندما يخالف توقعهم؛ ليردوا الرصف إلى معهود العرف النظمي والعادة البنائية، وهم بهذا شاؤوا أم أبوا يهمشون المعنى، والسياق، والقرآئن، وجوّ النص، وكل ما يحيط به مما يساهم في الكشف عن سرّ هذا الانفكاك الذي لم يكن إلا لسر فخم، ماز به القرآنُ غيرَه من الكلام العربي كما سيأتي.

ولقد أشار علماء القرآن لعاداته سواء في ذلك سلف الأمة أو خلفهم، وهي ليست محل هذا البحث، وإنما سيتولى مقاربة الأغراض البلاغية التي لأجلها انفكّ النظم القرآني الكريم عن مثل تلك الأعراف والعادات.

أهداف الدراسة :

١–تتبع صور هذه الظاهرة البلاغية الفخمة في أعلى نصوص بليغة، ألا وهي مواضع توظيفها في القرآن الكريم.

٢ – تقصي بواعث استخدام أحد أقسامها دون البقية، بحسب ما اقتضته مقامات ورودها في الذكر الحكيم.

٣–الكشف عن الأغراض البلاغية لها والأنواع البلاغية التي تضمنتها.

منهج الباحث:

سلك الباحث لتحقيق أهداف البحث المنهج التحليلي الوصفي، وهو واحد من أهم المناهج التي تتصف بالخصوصية؛ لتوضيح الظاهرة محل الدراسة والبحث.

الدراسات السابقة:

من الدراسات التي لا ينبغي إغفال النظر فيها لمقارب هذه الظاهرة، هي تلك الدراسات التي اعتنت بالحديث عن عادات القرآن وهي وإن كانت شحيحة إلا إنه يمكن من خلالها تتبع ظاهرة الانفكاك عن تلك العادات التي جرى نظم البيان القرآني على مراعاتها من الفاتحة إلى الناس.

ولعل أبرز هذه الدراسات فيما بدر لي:

١- عادات القرآن الأسلوبية دراسة تطبيقية، للدكتور راشد بن حمود الثنيان، وهو كتاب مطبوع وأصله أطروحة علمية تقدم بها الباحث الكريم لنيل درجة الدكتوراه في القرآن وعلومه، وقد استقرأ فيها عادات القرآن ودرسها وأبرز شيئًا من جهود العلماء في بيانها.

٢- عادات القرآن الكريم عند الشيخ ابن عاشور من خلال كتابه تفسير التحرير والتنوير "دراسة تحليلية" لمحمد حامد حسن عطية، وهو بحث منشور في حولية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، وهو بحث بين فيه باحثه العادات من القرآن في تعابيره المتعلقة بالمفردات والتراكيب والعادات في أنظمتها وأسلوبها من خلال تفسير آل –التحرير والتنوير ، وأشار إلى الجديد عند الشيخ ابن عاشور، وخلص فيه إلى أن للقرآن عادات كثيرة في قصصه ، وعرض هديه ، وطريقة المناظرات ، وختم بنتائج ، من أبرزها: أن الشيخ ابن عاشور بذل مجهودًا كبيرًا في إظهار العادات. من القرآن في كلمته ونظامه، وحقق ما أشار إليه في مقدمته ، وأوصى الباحث الكريم بدراسة العادات القرآنية من خلال كتب التفسير التي اهتمت بهذا مثل تفسير مفاتيح الغيب ، وتفسير المنار.

وأسأل الله أن يسدد القلم ويجنبه الزلل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

لغة القرآن هو المعهود من عادته في ألفاظه وأسلوبه؛ بالنظر إلى نظائر اللفظ في القرآن، فيعرف معناه باطّراد ذلك المعنى في تلك النظائر، وعموم المعنى لموارد استعمال ذلك اللفظ(١).

يقول الجاحظ: "وفي القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس"(٢).

والقرآن إذا ذكر أنواعًا كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إما بالإلهيات، وإما بشرح أحوال الأنبياء، وأحوال القيامة؛ ليصير ذلك مؤكدًا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع، ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد(٣).

ولست بصدد الحديث عن هذه العادات والأعراف التعبيرية وشواهدها، فالقرآن مليء بها، ولكنني سأناقش صورًا من انفكاك القرآن عنها؛ لأتلمس الأسرار الكامنة وراء ذلك.

وهي كثيرة، فمنها:

١- انفكاكه عن عاداته في الألفاظ المتعادِلة.
٢- انفكاكه عن عاداته في عنوانات المقالات.
٣- انفكاكه عن أعرافه في الأخبار.
٤- انفكاكه عن عاداته في الأجوبة.
٥- انفكاكه عن عاداته في الجزاءات.
٦- انفكاكه عن عاداته في خواتيم الآيات.

ولعلي أقتصر في الحديث عما انفك فيه النظم عن أعرافه في هذه المسالك؛ لأنّها أقل طرقًا من غيرها، وأكثر تحييرًا لمقاربيها من بلاغيي المفسرين، وأجعلها في مطالب ثلاثة على ما سيرد تقسيمها في هذا البحث.

الفرق بين الانفكاك والعدول:

ربما يرد سؤال عن مدى إمكانية عدّ الانفكاك من ظاهرة العدول البلاغي التي تبوأت وظيفة كبيرة في بلاغة النظم القرآني وحضورًا واسعًا، إلا أننا إذا أردنا أن نفرق بين هذه الظاهرة وبين ظاهرة العدول بوسعنا أن نقول: إن الانفكاك الذي نحن بصدده هو

(١) ينظر: حاشية مقدمة التفسير لابن قاسم ١١٧.
(٢) البيان والتبيين ٤٢/١.
(٣) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٤٥٦/١٢.

خروج عن عادات النظم القرآني خاصّة وأعرافه، وأما العدول خروج عن عادات اللغة وأعرافها عامة.

المطلب الأول: انفكاك النظم القرآني عن أعرافه في المعادِلات

معادل الشيء وعديله لغة: النظير والمثل، والجمع أعدال وعدلاء(١).وعادله، معادلة: وازنه، وكذا: عادل بين الشيئين(٢).

وللقرآن في سوق المعادلات عادات وأعراف، منها: التزامه بإطلاقات ثابتة في كلتا كفتي المعادلات الشائعة التي يتكرر ذكرها، لا ينفك عنها طيلة تهادي نسجه المتين إلا لغرض، وأيضًا معالجته في الطرف الثاني من المعادلات مثيل ما يعالجه في الأول منها.

إلا أنه انفك عن مثل تلك الأعراف لأغراض بلاغية، ومن صور هذا الانفكاك:

أ- **الانفكاك في ثبات الإطلاقات:**

١- إطلاقات جرت عادته أن يلتزمها في سائر النظم القرآني، كالتزامه بإطلاق الإيمان على جماعة المؤمنين، فينفك عنها في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ ٢٥٦﴾ (البَقَرَة الآية ٢٥٦) فقد انفكّ البيان القرآني عن ملازمة إطلاق الإيمان على جماعة المؤمنين بلفظه المعهود، كما أنه في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ (العَنكَبُوت الآية ٢٥٢) أشار للكفار بلفظ الإيمان بالباطل، ولم يلبث أن عاد إلى طريقته مباشرة في الإطلاق المعهود إذ أردف الأول قوله: ﴿وَيُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ وأردف الثاني بقوله: ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾.

فهو عند ذكر حال المؤمنين مع الكافرين ابتدأ نعتهم بالكفر بالطاغوت، على غير عادته في التعبير في سائر النظم القرآني المبين.

وهو بذكر الكفر بالطاغوت يكون قد نبّه على الانسلاخ بالكلية، مما كان مشتبهًا به، سابقًا له قبل الإيمان؛ لأن في النصية عليه مزيد تأكيد على تركه(٣).

ولو تأملنا الشاهد الأول فإننا سنجد أن البيان الكريم قد "قدم ذكر الكفر بالطاغوت على ذكر الإيمان بالله تعالى اهتمامًا بوجوب التخلية، أو مراعاة للترتيب الواقعي" (٤).

(١) المحكم لابن سيده مادة (عدل) ١٣/٢.
(٢) لسان العرب لابن منظور نفس المادة ٤٣٢/١١.
(٣) ينظر: البحر المحيط ٦١٧/٢.
(٤) روح المعاني ١٤/٢.

يقول ابن عطية: "وقدم ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ليظهر الاهتمام بوجوب الكفر بالطاغوت"(١).

وناسب ذلك أيضًا اتصاله بلفظ الغي، ولأن الكفر بالطاغوت متقدم على الإيمان بالله، لأن الكفر بها هو رفضها، ورفض عبادتها، ولم يكتف بالجملة الأولى؛ لأنها لا تستلزم الجملة الثانية، إذ قد يرفض عبادتها ولا يؤمن بالله، لكن الإيمان يستلزم الكفر بالطاغوت(٢).

وأما قوله تعالى: {وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ} [سورة العنكبوت:٥٢].

فقد كانت عادته مع من حاد عن طريق الحق الاكتفاء بوصفه بالكفر، إلا إنه هنا زاد بوصفهم بالإيمان بالباطل، بل وقدّم هذه الوصف على وسمهم بالكفر بالله، فلأي غرض كان ذلك.

يقول الرازي:" إذا كان الإيمان بما سوى الله كفرًا به، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذي هو في قول القائل قم ولا تقعد واقرب مني ولا تبعد؟ نقول: نعم فيه فائدة غيرها، وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الأول، كقول القائل: أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح"(٣).

ومنه قوله تعالى: {أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ} [سورة السجدة:١٨].

فمن أعراف القرآن اقتران ذكر المؤمن بالكافر لا بغيره؛ لأنه معادله، يقول الطيبي (٧٤٣هـ):" سنة الله جارية في هذا الكتاب المجيد أن يقابل ذكر المؤمنين بذكر مخالفيهم، ويقارن ذكر الجنة بذكر النار"(٤).

فلماذا حصل هذا الانفكاك التعبيري.

يقول البقاعي (٨٨٥هـ):"ولما كان السياق منسوقًا على دليل {مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ} [سورة السجدة:٤].- الآية، فكان الكافر خارجًا عن محيط ذلك الدليل الذي لا يخفى بوجه على أحد له سمع وبصر وفؤاد، اقتضى الحال التعبير بالفسق الذي هو

(١) المحرر الوجيز ٣٤٣/١.
(٢) ينظر: البحر المحيط ٦١٧/٢.
(٣) التفسير الكبير ٦٦/٢٥.
(٤) فتوح الغيب ٦٥٧/١٢.

الخروج عن محيط فقال: {فَاسِقًا} [سورة السجدة:١٨].أي راسخاً في الفسق خارجًا عن دائرة الإذعان"(١).

ومن عاداته التي انفك عنها انفكاكه عن تسمية قوم هود وصالح بأسماء قبائلهما (عاد وثمود) في بعض المواضع، إلى إطلاق لفظ (قوم) مضافاً لنبي كل منهما، يظهر ذلك بالنظر لقوله تعالى: {وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾} [سورة هود:٨٩].

وفي هذا انفكاك عما جرت عادته في التعبير عنهما خاصة دون غيرهما من الأقوام، كما نلحظ هذا في سائر مواطن الحديث عنهما في القرآن(٢).

ولعله بالنظر إلى مواطن ذكرهم في القرآن نلحظ أن التعبير هنا خالف المعتاد؛ لكونه ورد على لسان نبي الله شعيب بينما في بقية المواضع على لسان الحق تبارك وتعالى، وفي تنصيص شعيب ' لأسماء الأنبياء قبله لفت نظر قومه أن سبب هلاك من قبلهم تكذيب رسلهم، فكان هذا أولى بهذا التعبير دون أسماء القبائل، على خلاف ذكرهم في المواضع الأخرى التي عبّر فيها النظم بأسماء قبائلهم والتي كانت تعبر عن مكاننهم وكثرتهم وأنهم بالرغم من هذا كله هانوا على ربهم لما عصوا أمره فناسب التعبير باسم القبيلة.

٢- انفكاك النظم عن التزام إطلاق أورده في الطرف الأول من المعادلة كان المتوقع في ظاهر النظم أن يلتزمه في الثاني، كقوله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ} [سورة القصص:٥٦].

ففي هذه الآية أيضًا نرى أن النظم قد انفكّ عن عرفه في التقابل، انفكاكًا جزئيًا فلم لَم يكن الكلام: ولكن الله يهدي من يحب.

ربما إذا تأملنا دقة التعبير وراء هذا الاختيار أدركنا أنه الأوفق بمقامه؛ فالنبي يمكن أن يحب مشركًا كعمه أبي طالب لما تربطه به العاطفة الإنسانية من رحم ونصرة، ثم يحب له الهداية، لكن الأمر مع الله عز وجل مختلف، إذ كيف يصح في جنبه المقدس جل وعلا أن يحب امرًا قبل طلبه للهداية وسعيه لها(٣)، وقد عبر الله عن هذه العلاقة بقوله لنوح: {قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ} [سورة هود:٤٦].وبقوله عن إبراهيم مع أبيه: {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ} [سورة التوبة:١١٤].لكن بعد

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٥/ ٢٥٨).

(٢) ينظر: [سورة الحج:٤٢]، و[سورة غافر:٣١].

(٣) قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾} [سورة آل عمران:٣٢] وقال تعالى: {فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ} [سورة آل عمران:٣١]

أن يهتدي العبد ويري الله من نفسه خيرًا يصطفي الله من يلقي عليه محبة منه ، لحديث:" وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بشيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به..."(١) ولقوله': " إنَّ اللَّهَ إذا أَحَبَّ عَبْدًا دَعا جِبْرِيلَ فقالَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأحِبَّهُ، قالَ: فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في السَّماءِ فيَقولُ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ، قالَ ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأرْضِ" وهذا يعني أن الله قد يهدي هداية التوفيق من يحب ومن لا يحب، لكنه يختص بمحبته من يشاء من خلقه.

فمحبة الله مرتبة عليا لا يدركها إلا أهله وخاصته،ثم إن الله جل شأنه قد بين لأنبيائه معايير العلاقة التي تستحق المحبة، وأنه لا اعتداد برابطة النسب إذا عطل المخلوق علاقته بالخالق.

ب) الانفكاك في الطرف الثاني من المعادلة عن معالجة مثيل ما أورده في الطرف الأول:

من ذلك:

١- قوله تعالى: {وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ} [سورة النمل:٩٢].

فقد كان المتوقع أن يقال: {وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ} [سورة يونس:١٠٨].جريًا على طريقة القرآن عند عرضه لهذا المعنى كما جاء في بقية مواضعه في القرآن الكريم(٢).

فلماذا جاء في هذا الموقع على خلاف ما يتوقعه القارئ؟

يقول الخطيب الإسكافي معللًا هذا الانفكاك:" وأما في الآية الثانية في آخر سورة النمل فإنها عدل بها عند ذكر الضلال عما حملت عليه في الآية التي في آخر سورة يونس لتحمل على الفواصل التي قبلها وهي مختومة بالواو والنون، أو الياء والنون، فقال تعالى {وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ} [سورة النمل:٩٢].أي: ممن يعلمكم ما يلزمكم أن تحذروه ويخوفكم ما يجب عليكم أن تجتنبوه، فاشتمل هذا على معنى:{وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [سورة الزمر:٤١]لأن في قوله تعالى:{وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ} [سورة يونس:١٠٨].أي: لست ممن يكره على ما يحميكم من النار، ويقيكم حر العقاب، كالوكيل الذي يحامي على ما وكل به أن يناله ضرر، مثل:{وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [سورة الأنعام:١٠٧]فجاء على لفظ {إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ

(١) صحيح البخاري باب التواضع حديث رقم ٦٥٠٢.

(٢) في يونس ٢٢١ والإسراء ٢٨٣ والزمر ٤٦٣.

ٱلۡمُنذِرِينَ} [سورة النمل:٩٢].لتكون الفاصلة مشاكلة للفواصل التي قبلها مع تأدية مثل المعنى الذي أدته الآية التي شابهتها"(١).

وهو كما نرى ينحت من المعنى الذي جاءت عليه آيات المواضع الأخرى رابطًا يصل به إلى تطابق المعنى في جميع الآيات، علاوة على الامتياز الأسلوبي الذي راعى الفاصلة في هذا الموضع.

٢ – قوله تعالى: {وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣} [سورة لقمان:٢٢-٢٣].

فإنه لما وصف المحسنين من المسلمين بأنهم قد عرفوا الطريق ولزموه، ثم أعقبه بذكر الكافرين كان المتوقع أن يكون الكلام:ومن كفر فقد أفلت العروة، أو{فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ} [سورة البقرة:١٠٨].جريًا على عرف النظم الكريم، في تناول صنو الشيء عند ذكر معادله، على غرار قوله جل في علاه: {مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ} [سورة فصلت:٤٦].وقوله تعالى اسمه: {مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ} [سورة الإسراء:١٥].لكن المتأمل في هذا النظم الشريف يجد أن المقام مقام طمأنة رسول كريم أفنى حياته في الإرشاد، وتهمه نتيجة دعوته، فراعى النظم ذلك عناية به وبمن سار على خطاه الشريفة من بعده، حيث بشّر الداعي بأنّ من أحسن في اتباعه فقد بلغ منزلة لا يصف مقدارها شيء ،كتشبيه حال التزامهم بمن استمسك بالعروة الوثقى، ثم لما دلف إلى ذكر من كفر بالدعوة ابتدأ الحديث بنهي الداعي عن حزنه، طردًا لما ينتاب نفسه من الشعور بالتقصير في مهمته، ومن الأسف على جماعته، فحتى مجرد الإشارة إلى جزائهم ــ الذي عودنا عليه النظم في مثل هذا المقام ــ لم ترد؛ مراعاة وإكرامًا له ‘، ولا حتى سمى محاكمتهم حسابًا وسؤالًا بل سماه إنباء، فلله بلاغة هذا التنزيل.

٣ – قوله تعالى: {لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ} [سورة يونس:٤].

إذ ذكر مع المؤمنين أداة الحكم، ثم انفك عند حديثه عن الكافرين عنه، إلى بيان عموم نوعه، بل ولون من ألوانه الخاصة؛ لغرض تطلبه المقام.

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ٧٥٢/٢.

يقول ابن عاشور (١٣٩٣ه):" خولف الأسلوب في ذكر جزاء الذين كفروا، فجاء صريحًا بما يعم أحوال العذاب... وخص الشراب من الحميم بالذكر من بين أنواع العذاب الأليم؛ لأنه أكره أنواع العذاب في مألوف النفوس"(١).

٤ – قوله تعالى: {لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا} [سورة الأحزاب:٨].

فقد انفك النظم عن عرف ذكر المعادل الذي سار عليه في مثل هذا التعبير، فلماذا لم يقل: (ويسأل الكاذبين عن كذبهم)جريًا على عرفه؟ وإنما كان ذلك لأمر ما.

يقول الزمخشري (٥٨٣ه): " {وَأَعَدَّ}:معطوف على {أَخَذْنَا} (٢)، لأن المعنى: أن الله أكّد على الأنبياء الدعاء إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين. وأعد للكافرين عذابا أليما، أو على ما دل عليه: {لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ} [سورة الأحزاب:٨]،. كأنه قال: فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين"(٣).

أو هو من الاحتباك البديعي، والتقدير: ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد لهم ثوابا عظيمًا، ويسأل الكافرين عن كذبهم، وأعد لهم عذابا أليما فحذف من كل منهما ما ثبت في الآخر، وهو الاحتباك (٤).

وفيما يبدو لي أنه إنما أظهر سؤاله للصادقين دون الكاذبين؛ لبيان قدرهم ووزنهم عنده، فاستحقوا أن يحكي ما سيكون من شرف مخاطبته لهم وشرف ما سيسألون عنه، ثم إنها نعمة تستحق النشر فأي لذّة تعدل مناجاة الكريم، أما الكافرين فلخسة حالهم، وتهالك شأنهم طوى سؤالهم مصداقًا لقوله: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ} [سورة الكهف:١٠٥]. واكتفى بعرض مصيرهم تشنيعًا عليهم.

٥ – وقوله جل وعلا: {وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ} [سورة غافر:٢٨].

أليس من المتوقع أن يقول: وإن يك صادقًا فله صدقه، كما في قوله: {مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ} [سورة فصلت:٤٦].

فلم انفك النظم المبين في هذا المقام عن عرفه في صياغة المعادل حسب عادته البيانية؟

إذا تأملنا السياق وجدنا أن الكلام على لسان مؤمن آل فرعون محاورًا قومه، وهو يكتم إيمانه عنهم، ولكي لا يفطنوا لانحيازه لموسى تطلب المقام أن يسلبه كل فضيلة، وأن

(١) التحرير والتنوير ٩٣/١١.

(٢) يعني قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا} [الأحزاب الآية ٧].

(٣) الكشاف: ٥٢٣/٣.

(٤) ينظر: البحر المحيط٤٥٦/٨، وحاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي ١٦٠/٧، وروح المعاني ١٥٣/١١.

يريهم أنه يفكر لهم ويخطط لصالحهم، فلهذا كان أن قدم احتمال كذبه على صدقه، ثم لما أراد أن يورد احتمال صدقه استثمرها لصالحهم بقوله: {يُصِبْكُمْ بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ} [سورة غافر:٢٨]. وطوى ما يمكن أن يعود على موسى مما يمكن أن يحسب له، على ما في العبارة من تشكيك وفتح مجال للطعن في موسى بقوله: {بَعْضُ} وليس كل الذي يعدكم، وكأنّ موسى إن حصل وصدق فلن يعدو أن يكون منجمًا لا نبيًا تصح كل وعوده، وفي هذا ما يدفع عنهما أدنى ريبة.

٦ – قوله تعالى: {۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾} [سورة غافر:٤١].

فقد كان المتوقع أن يقال: وتدعونني الى الهلاك.

وهذا من البديع البلاغي فالمقصود: ادعوكم إلى النجاة التي توجب الجنة، وتدعونني إلى الهلاك الذي يوجب النار.

٧ – قوله تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ} [سورة فصلت:١٧].

فقد انفك هنا العرف الذي التزمه في مثل قوله تعالى: {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾} [سورة الحاقة:٥-٦].

إذ لما قال {فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ} [سورة فصلت:١٥].كان المتوقع أن يكون القول مع ثمود شيئًا يدل على موقفهم من الدعوة مباشرة، وعدم قبولهم الحق ابتداء ليعادل ما قبله، كما صنع في حديثه عن قوم عاد، فلماذا أشار إلى هداية وقعت لثمود قبل أن يورد موقفهم من الدعوة، بقوله: {فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ} [سورة فصلت:١٧].

ولعلّ في كلام ابن عاشور (١٣٩٣ه) على الآية ما يشير إلى سر هذا الانفكاك، إذ يقول: "ولما كان حال الأمتين واحدًا في عدم قبول الإرشاد من جانب الله تعالى، كان الإخبار عن ثمود بأن الله هداهم مقتضيًا أنه هدى عادًا مثل ما هدى ثمود، وأن عادًا استحبوا العمى على الهدى، مثل ما استحبت ثمود. والمعنى: وأما ثمود فهديناهم هداية إرشاد برسولنا إليهم، وتأييده بآية الناقة التي أخرجها لهم من الأرض.

فالمراد بالهداية هنا: الإرشاد التكليفي، وهي غير ما في قوله: {وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ} [سورة الزمر:٣٧].فإن تلك الهداية التكوينية؛ لمقابلته بقوله: {وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ} [سورة الرعد:٣٣]"(١).

(١) التحرير والتنوير ٢٦٢/٢٤.

فيظهر من كلام ابن عاشور(١٣٩٣ه) أنه لما ماز قوم ثمود بالتأييد بالناقة، زيادة عن الإرشاد بالرسول وهي آية عجيبة؛ استحقت أن تدرج هنا على غير العادة النظمية للتنبيه عليها، فوازت غرابتها غرابة هذا الانفكاك.

٨ – ومنه قوله تعالى: {وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾} [سورة الجن:١٤-١٥].

إذا تتبعنا عادة النظم القرآني نجد أن المتوقع في مثل هذا أن يكون جزاء المسلمين الذي هو معادل جزاء القاسطين مذكورًا، ولكن انفك عن ذلك لغرض.

وهو – والعلم عند الله – الإشارة إلى أهمية تحري الرشد، وأنه سبيل الفلاح، فعبر عنه به؛ تحفيزًا إليه لما له من عظيم الأثر في العاقبة، التي لا تتحقق إلا لمن سلكه.

إلا أن أكثر بلاغيي المفسرين – تطلبًا للمناسبة – لم يتجهوا للبحث عن سر هذا التعبير، بل ضربوا عنه صفحا وراحوا يقدّرون ما عساه أن يردم هذا الانفكاك الذي بدا لهم.

يقول البقاعي (٨٨٥ه) مقدرًا المعادل:" ومن قسط فأولئك ضنوا فنالوا غيًا وشططا"(١).

ويجيب الفخر الرازي (٥٨٣ه) بعد أن يسأل عن سبب عدم إجراء الأول على نظير الثاني بقوله:" لم ذكر عقاب القاسطين ولم يذكر ثواب المسلمين؟ الجواب: بل ذكر ثواب المؤمنين وهو قوله تعالى: {تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا} [سورة الجن:١٤].أي توخّوا رشدا عظيمًا لا يبلغ كنهه إلا الله تعالى، ومثل هذا لا يتحقق إلا في الثواب" (٢).

المطلب الثاني: انفكاك النظم القرآني عن أعرافه في العنوانات والجوابات

عنوانات المقالات هي أول العتبات التي يمكن من خلالها التنبؤء بفحوى الخطاب، وقد وظفها البيان الكريم توظيفاً عميقاً في الدلالة على مرامي الخطاب، وكانت له فيها عادات ثابتة لا يتعداها لتكون بمثابة سيميائيات للمتلقي تهديه إلى الأغراض التي أقيم بناء المقاصد النظمية عليها(٣). إلا إنه ربما انفك عن معتاده في ذلك لأغراض دلالية طارئة لا يمكن تحقيقها إلا بمثل هذا.

والجوابات هي ركن تحصل به الفائدة ويتم به الكلام، ومن خلاله يفهم الملتقي ما يريده المتكلم، وهو يقع في أساليب العربية المختلفة كأسلوب الشرط، من الأمر، والنهي والدعاء، وكذلك يرد في بعض الأساليب كالرجاء، فضلا عن الاستفهام الذي يرد على عبارة السؤال.

(١) نظم الدرر ٤٨٥/٢٠.

(٢) مفاتيح الغيب ٦٧١/٦.

(٣) ينظر: سيميائيات الخطاب والصورة فايزة يخلف: ١٠.

وللنظم القرآني أعرافه التعبيرية في جواباته، كالمطابقة بين الطلب وجوابه، وذكر الأجوبة والجزاءات، إلا أنه قد ينفك عن مثل ذلك لغرض بلاغي.

ومن صور تلك الانفكاكات البلاغية التي باشر كل ما سبق:

أ – الانفكاك عن المتوقع التعبيري:

ومن شواهده في **عنوانات المقالات** في الكتاب العزيز قوله تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١} [سورة الفرقان:٢١].

فقد عنون عليهم في هذه المقالة ب الذين لا يرجون لقاءنا وعنون عليهم في المقالات السابقة بـ{وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} [سورة الفرقان:٤]. وبـ {وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ}[الفرقان: ٨].لأن بين هذا الوصف وبين مقالتهم انتقاض، فهم قد كذبوا بلقاء الآخرة بما فيه من رؤية الله والملائكة، وطلبوا رؤية الله في الدنيا، ونزول الملائكة عليهم في الدنيا، وأرادوا تلقي الدين من الملائكة أو من الله مباشرة، فكان في حكاية قولهم وذكر وصفهم تعجيب من تناقض مداركهم(١).

وأما ما انفكّ عنه النظم القرآني **في الجوابات** فمن شواهده:

١ – قوله تعالى: {فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ} [سورة آل عمران:٢٠].

فقد كان من المتوقع أن يقول: وإن تولوا فقد ضلوا ؟ كما هو العهد في نظائره، وهذا ما دفع بعض المفسرين إلى تقديره، كما صنع أبوحيان (٧٤٥ه)حين قال:" وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، ووجهه: أن الإسلام الانقياد إلى الإسلام، والإقبال عليه، والتولي ضد الإقبال. والتقدير: وإن تولوا فقد ضلوا، والضلالة ضد الهداية"(٢).

وكما نرى فإنّ تقدير أبي حيان يحتاج إلى تقدير شيء بعده، حتى لا يختل سبك الآية، إذ من شروط التقدير أن لا يتأثر رصف المبنى عند إظهار المقدر؛ لأثر ذلك على الإعراب(٣).

ولعل في النظر إلى ما قدره البقاعي (٨٨٥ه) يسدد هذا النقص، فقد قدّر بين هذا وذاك ما يتصل به الكلام ليكوّن به الصورة: فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فقد ضلوا عن الإسلام فهم معاندون فلا يهمنّك أمرهم فإنما عليك البلاغ(٤).

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٥/١٩.

(٢) البحر المحيط٣/٧٩.

(٣) ينظر: الحذف والتقدير، لعلي أبو المكارم ص ٢٠٥.

(٤) ينظر: نظم الدرر ٢٩٧/٤.

٢ - وقوله تعالى: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ} [سورة الأنفال:٣٨].

لماذا لم يكن الكلام: وإن يعودوا يؤاخذوا أو يعاقبوا، أو نحو ذلك، على غرار قوله تعالى: {فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦} [سورة الفجر:١٥-١٦].

والجواب أنّ في هذا الختام تعريض بالوعيد بأنهم سيلقون ما لقيه الأولون، والقرينة على إرادة التعريض بالوعيد أن ظاهر الإخبار بمضي سنة الأولين، وهو من الإخبار بشيء معلوم للمخبرين به، وبهذا الاعتبار حسن تأكيده بقد إذ المراد تأكيد المعنى التعريضي.

وبهذا الاعتبار صح وقوع قوله: {فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ} [سورة الأنفال:٣٨].جزاء للشرط. ولولا ذلك لما كان بين الشرط وجوابه ملازمة في شيء [(١)].

أقول: ولولا هذا البيان الذي جاء به التعريض مما لا يتحقق بسواه لما انفك النظم عن عادته في مثل هذا القول.

٣- وقوله تبارك اسمه: {وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ} [سورة القصص:٧].

فالموقف موقف خوف، فكان المتوقع أن يأتي بعده الأمر بحفظ الشيء الواقع عليه لا إلقائه! بل وأين ؟ في البحر، مظنة الهلاك! وعادة القرآن على غير ذلك؛ فالمتتبع لمقام ورود الخوف في نظمه يجد ذلك جليًا، فإنه لما ذكر خوف المورِّث على ذريته أمره بحفظ حقه من التركة في قوله تعالى: {وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا} [سورة النساء:٩].

ولما ذكر خوف المستضعفين في الأرض؛ أردفه بمنة الحفظ بالإيواء في قوله تعالى: {وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ} [سورة الأنفال:٢٦].

فلماذا انفك النظم الكريم عن ذلك، بل وجاء بعكس المتوقع في الذهن؟

وربما يقول قائل: إنها كانت إحدى طرق الحفظ لديهم، لكن يَردُّ هذا صريح الآية التي عبر فيها القرآن عن قصد تعريضه للخطر لحكمة بالغة، وذلك ما نطقت به آية طه حين قال تعالى: {يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ} [سورة طه:٣٩].

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٣٤٤/٩.

فعند التأمل نجد أن البيان الحكيم قد أراد تصعيد الموقف، والإرهاص إلى قضية كبرى، إنها قصة ولادة النور وسط دياجير الظلم والعلو والاستكبار والجرأة على الله، الذي مهدت له السورة بقوله: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ} [سورة القصص:٤].فكان لا بد من إثارة الانتباه ولفت الأنظار إلى أنّ ثمة أمر سيغير الواقع الأسيف الذي طالت مدته وتطاولت شرذمته، فجاء كل شيء هنا على خلاف المعتاد ليتناسب هذا مع الطغيان الفريد من نوعه لمن قال {فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾} [سورة النازعات:٢٤].. فأُمرت الأم بإلقاء ولدها عند الخوف، ليس ذلك فحسب، بل وفي البحر؛ ليأخذه عدو له.

إنه استعراض القوة القاهرة التي لا تعادلها قوة، إذ لا يقول مثل هذا إلا من يملك تغيير خصائص الأشياء، فالنار التي أفقدت خاصة الإحراق عندما ألقي فيها الخليل بأمر الرؤوف الرحيم، ليست ببعيدة عن اليم الذي سيكون مصدر أمن لكليم الله، بعد أن كان مهيع المهالك.

ولهذا جاء آخر الآية بكم لا حد له من إظهار العظمة وتجلي القدرة المالئة للنفوس طمأنينة والمانحة لها أسمى الأوسمة وآيات الشرف بقوله تبارك وتعالى بضمير العظمة: {إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ} [سورة القصص:٧].. إنها فخامة الملك وتناهي القدرة التي تتناسب مع مطلع الآية من أوامر ونواهي.

وانظر كيف جمع بين ذكر الخوف والنهي عنه عند الشعور به، يقول الزمخشري:" إن قلت: ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر؟ قلت: أما الأول فالخوف عليه من القتل، لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه. وأما الثاني، فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان، وغير ذلك من المخاوف"(١).

ولا عجب أن تُلفت هذه الآية بما اشتملت عليه من سبائك نظمية وآفاق معنوية أنظار الفصحاء وأرباب البيان، فقد روي أن الأصمعي مرّ بجارية تنشد فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت له: ويحك! أفصاحة بعد قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ} [سورة القصص:٧].فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين(٢).

(١) الكشاف ٣٩٣/٣.

(٢) ينظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب ١١/١٢.

٤ – وقوله عز وجل:{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} [سورة يس:٤٧].

فقد عبر عن الطلب بالإنفاق وأجيب بالإطعام، وهذا انفكاك عن عرف من أعراف البيان القرآني في المطابقة بينهما، فما سر ذلك؟

كان المتوقع أن يقول: أننفق على من لو يشاء الله رزقه ؟

يقول الفخر الرازي (٥٨٣ه):"ما الفائدة في تغيير اللفظ في جوابهم بحيث لم يقولوا أننفق على من لو يشاء الله رزقه، وذلك لأنهم أمروا بالإنفاق في قوله: وإذا قيل لهم أنفقوا فكان جوابهم بأن يقولوا أننفق فلم قالوا:أنطعم؟

نقول: فيه بيان غاية مخالفتهم، وذلك لأنهم إذا أمروا بالإنفاق – والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره – لم يأتوا بالإنفاق ولا بأقل منه وهو الإطعام، وقالوا لا نطعم، وهذا كما يقول القائل لغيره: أعط زيدًا دينارًا، يقول: لا أعطيه درهمًا، مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه دينارًا، ولكن المبالغة في هذا الوجه أتم، فكذلك هاهنا"(١).

٥ – قوله تبارك وتعالى: {فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [سورة الفتح:١٠].

فقد كان المتوقع أن يكون القول: ومن أوفى فإنما يفي لنفسه.

ولعل السر في هذا الانفكاك: إرادة بيان عظم العهد كونه مع الله عز وجل. ويعضد هذا ما جاءت عليه قراءة الرفع في الهاء فقد قرئت بالضم على لغة قريش، وكذلك يقولون فيهُ، أما سائر العرب فيقولون عليه (٢).

٦ – وقوله تعالى: {أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤} [سورة القيامة:٣-٤].

كان المتوقع قادرين على أن نجمعها، ولكن لغرض بلاغي" انفك في متعلق قادرين عن أن يقال: قادرين على جمع عظامه إلى قادرين على أن نسوي بنانه؛ لأنه أوفر معنى وأوفق بإرادة إجمال كيفية البعث والإعادة"(٣).

٧ – وقوله تعالى: {فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩} [سورة القارعة:٦-٩].

(١) مفاتيح الغيب ٢٨٨/٢٦.

(٢) ينظر: الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ٣٢٩، والحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي ٦٠/١، ولمسات بيانية في القرآن للدكتور فاضل السامرائي.

(٣) التحرير والتنوير ٣٣٧/٢٩.

فقد كان المتوقع أن يقال في الجزاء: فهو في عيشة ساخطة، لكن جاء نظم الآية بصورة لطيفة وبإيجاز جميل في تصوير كلا الفريقين في هذا المشهد، إذ قابل بين عيشة راضية وأمه هاوية، فلم يقل في مقابل الجملة الأولى فو في عيشة ساخطة، ولا في مقابل الثانية فأمه عالية، فحذف من كل طرف ما هو ضد الآخر؛ لدلالة ضده عليه على طريقة الاحتباك (١).

ب – **حذف الأجوبة والجزاءات:**

جرت عادة النظم الكريم أن يذكر الجواب والجزاء، لكنه قد ينفك عن ذلك فيحذفهما لغرض بلاغي، في مواطن منها:

١ – قوله جل في علاه: {أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ} [سورة الزمر:١٩].

فقد كان المتوقع أن يقول: كمن نجا(٢)، أو كمن وجب له النعيم أو نحو ذلك، جريًا على عرف نظمه وعادة رسمه في اتباع الوعيد بالوعد. ولكنه انفك عن ذلك لغرض.

وبمعونة السياق ندرك سر الانفكاك.

إنه بمثابة استيقاف الأذهان؛ لتأمل أمر لا يمكن المرور به مرورًا عابرًا، وهذا الاستيقاف ناشئ عن مجابهة الذهن المنطلق للبحث عن الجواب، ومحاولة كبح جماحه فثمة أمر أخطر وأغزر من أن يتعدى، حتى لو لم يبلغ الكلام تمامه كما ههنا.

٢ – وقوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الحج:٢٥]..، وقوله تعالى {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ} [سورة فصلت:٤١]..

فقد كان المتوقع أن يتحدث عن جزاء الذين كفروا بالذكر، كما هي عادة القرآن(٣)إلا أن النظم خالف توقع المتلقي، وتحول في الموضع الأول للحديث عن حرمة المسجد الحرام، وفي الثاني عن الكتاب العزيز، وضرب صفحًا عن الحديث عن ذكر جزاء من كفر بعد ذكرهم في بداية السياق.

وفيما يبدو لي أنّ أمر الصد عن المسجد الحرام من الأمور الفادحة التي عرض لها القرآن الكريم، ولخطر أمره وفرادة طرقه انفك النظم عن ذكر جزاء الكافرين، الذي

(١) ينظر: بلاغة الحذف التركيبي في القرآن الكريم الاحتباك أنموذجًا د.عدنان عبدالسلام الأسعد ص ٧٤.

(٢) التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١١١٠/٢.

(٣) كقوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} [آل عمرّان الآية ٤]

اعتاد ذكره وألفه السامع؛ ليسلط الضوء على هذا المعنى البكر، فاستطرد في وصف المسجد ومكانته ووظيفته وتهديد من تتحرك نفسه لتدبير شر فيه.

وهذا الاستطراد لتهجين فعل الصادّين وتصوير قبحهم؛ لأنه كلما ازداد ما صد عنه تعظيمًا يزداد قبح الصد والمنع (١).

وفي الموضع الثاني كان أمر الكتاب أحرى بأن ينفك النظم عن الحديث عن جزاء الكافرين إلى بيان مكانته؛ ليهول من شأن مخالفيه ويرفع من وتيرة تهدُّدِهم، فتذهب النفس في تصور مآلهم كل مذهب.

وقد فطن الرازي (٥٨٣ه) على عادته لمثل ذلك، يقول: "هذا أيضًا تهديد، وفي جوابه وجهان: أحدهما: أنه محذوف كسائر الأجوبة المحذوفة في القرآن على تقدير: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يجازون بكفرهم أو ما أشبه، والثاني: أن جوابه قوله: {أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ} [سورة فصلت:٤٤].والأول أصوب، ولما بالغ في تهديد الذين يلحدون في آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن، فقال: وإنّه لكتاب عزيز"(٢).

ولابن عطية قول يعضد الذي ذكرته، يقول في تفسيره للآية: "قال القاضي أبو محمد: والذي يحسن في هذا هو إضمار الخبر... وإنما هو بعد {حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [سورة فصلت:٤٢]. وهو أشد إظهارًا لمذمة الكفار به، وذلك أن قوله: {وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ} [سورة فصلت:٤١].داخل في صفة الذكر المكذب به، فلم يتم ذكر المخبر عنه إلا بعد استيفاء وصفه، وهذا كما تقول: تخالف زيدًا وهو العالم الودود الذي من شأنه ومن أمره، فهذه كلها أوصاف(٣).

ج – ترك الردود على الشبه المثارة:

من عادات القرآن الكريم الرد على الشبهة عند إيرادها في مواضع كثيرة من الذكر الحكيم، ويكثر ذلك في سياق المقاولة، وأعني بها إيراد شبهة المخالفين مصدّرة بفعل القول وإتباعه الرد مصدّرًا بـ (قل) التي تفند ما قيل قبلها، في نحو قوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١} [سورة البقرة:١١١]. وقوله:{وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ

(١) ينظر: فتوح الغيب ٤٩٣/١٠.

(٢) مفاتيح الغيب ٥٦٨/٢٧.

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥/ ١٩.

أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾} [سورة سبأ:٣٥-٣٦].(١).

ولا يقتصر تصدير الردّ بفعل القول، بل ربما نابت عنه (بل) التي للإضراب عن النسبة، وذلك في نحو: {وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾} [سورة البقرة:٨٨].

إلا إن النظم الكريم قد ينفك عن الرد، ويقتصر على إيراد الشبهة فقط، لغرض بياني، وذلك في نحو قوله تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾} [سورة البقرة:١١٨]. وقوله: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾} [سورة النحل:٣٥]. وقوله: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾} [سورة سبأ:٧].

فلِمَ انفك النظم عن عادته واقتصر على إيراد الشبه في هذه المواضع، وكان من شأنه الرد على نظائرها في نحو قوله تعالى: {وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾} [سورة الأنعام:٨] .

وقوله تعالى: {سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾} [سورة الأنعام:١٤٨].

وقوله: {وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾} [سورة يونس:٢٠].

وقوله: {وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾} [سورة الرعد:٢٧].

وقوله: {وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾} [سورة العنكبوت:٥٠]؟

(١) ومثل ذلك كثير في القرآن تنظر الآيات التالية: [الأنعام:٣٧،٣٨].

والجواب والله أعلم وأحكم في الغرض من الرد في بعض هذه الشواهد، والإعراض عنه فيما ماثلها في مواضعه من النظم الكريم، أنّ القرآن كتاب هداية وقد اقتضت بلاغة نظمه أن يُترك من الكلام ما لا طائل وراءه، فقد علم الله أن قول هؤلاء في مثل هذا هو قول الساخرين، لا الطالبين للحقيقة الباحثين عنها، فهو حتى في جوابه عن هذه الشبه في بعض الشواهد التي قاولهم فيها لم يكن يرد عليهم من منطلق منطقهم المتهافت، وإنما من ميراث حكمة بتذكيرهيم أن مثل هذه المقولات كانت من سخافات القول التي تداولتها الأمم الممحوقة قبلهم، ولو كان فيها حجة صامدة لنفعت من سبقهم وأغنت عنهم وأنّى لهم. فلو كان فعلهم مرضيًا لله لما أهلكهم، فهلا استدلوا بهلاكهم على أن الله غير راض بفعلهم، فإن دلالة الانتقام أظهر من دلالة الإملاء.

وإنما قطع المحاجة معهم لإعلامهم أن ليس من شأن الرسل چ المناظرة مع الأمة.

وليسوا بمكلفين بإكراه الناس على الإيمان حتى تسلكوا معهم التحكك بهم والإغاظة لهم(١).

المطلب الثالث: انفكاك النظم القرآني عن أعرافه في الفاصلات

تدور معاني الجذر اللغوي للفاصلة حول: التمييز، والقطع، والحجز، والانفصال، والبيان والتوضيح(٢).

وفي الاصطلاح: كلمة آخر الآية(٣).

وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة؛ لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها(٤).

والفاصلة القرآنية تنشئ معنى جديدًا يكون متضافرًا مع المعاني الأخرى، وهي مقصودة في نفسها(٥).

وللفواصل أثرٌ مهمٌّ في تحديد المعاني، يصل إلى حد الفصل بين الآراء الفقهية، وبيان الراجح من المرجوح أثناء استنباط الأدلة الشرعية(٦)؛ يقول القنوجي (١٣٠٧هـ): "لا يتأتى لأحد معرفة معنى القرآن، ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل"(٧).

(١) ينظر: الكشاف: ٦٠٤/٢، والتفسير الكبير: ٢٠٣/٢٠، وكشف الريب: ٢٨٣/٦ وفيه كلام نفيس لإمام الحرمين صاحب الإرشاد، والتحرير والتنوير:١٤٧/١٤.

(٢) ينظر مقاييس اللغة مادة (فصل).

(٣) ينظر في هذا: البرهان ١ /٥٣ ، ومن بلاغة القرآن ص٧٥، والفاصلة في القرآن ٢٦ ،وخصائص التعبيرالقرآني٢١٨/١ ، وإعجاز القرآن د فضل عباس ص٢١٨.

(٤) النكت في إعجاز القرآن للرماني ص٩٨.

(٥) الفاصلة القرآنية والسجع للمثنى عبد الفتاح محمود ١٣٨.

(٦) بلاغة الفواصل القرآنية د.عبد الله علمي. مقال في الشبكة الإلكترونية.

(٧) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم للقنوجي ٢/ ٥٧٠.

وللكتاب المبين في ختم الآية القرآنية أعرافه التعبيرية، التي يوافق بها تقانات الكلام العربي في أعلى نظامه وأدق سبكه. وقد ينفك عنها لغرض بلاغي. وهذا الانفكاك إما عن سمة أسلوبية أو معنوية.

أ) **انفكاك الفاصلة عن عرف أسلوبي**، وقد جاء على صور منها:

١-**إظهار العائد على ما تقدم من ظاهر الكلام:** ومنه قوله سبحانه: {مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ} [سورة البقرة:٩٨].

فالمتوقع أن يعبر بالضمير فيقول: عدو لهم.

قال الفخر: "أراد عدو لهم إلا أنه جاء بالظاهر، ليدل على أن الله تعالى إنما عاداهم لكفرهم وأن عداوة الملائكة كفر" (١).

٢-**الاستثناء بعد التوكيد:** ومنه قوله تعالى: {فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾} [سورة الشعراء:١٧٠-١٧١].

فإن ختم الآية بلفظ {أَجْمَعِينَ} فيه انفكاك عن عرف تركيبي التزمه القرآن، وهو أن الاستثناء لا يكون بعد التأكيد. لكنه هنا أكّد قبل أن يستثني، ما جعل المتلقي يتوقع بأنه لم يتبق أحد من جملة الأهل إلا ونجا، مع ما اشتهر من أمر امرأة لوط، وأنها لم تكن ناجية، فما السر ؟

أقول وبالله التوفيق: إنما تم التأكيد على استيعاب الأهل قبل ذكر العجوز؛ للفت النظر لمخالفتها لهم في الدين، مع أنها من جملة أهلهم في النسب فكأنها لم تعد في عداد الأهل فجاز التعبير بالمؤكّد {أَجْمَعِينَ}) قبل ذكرها للإشارة إلى أن مخالفتها لهم في الدين أخرجتها من جملة الأهل. فهذا الفهم أقرّه القرآن في تعبير مباشر عند قوله: {فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ} [سورة هود:٤٥-٤٦].

وليس بصحيح من أنّ القرآن رفع أهليتها في النسب لكفرها، بدليل أنها في مواطن منه جاءت مستثناة من الناجين منهم، ولو قال قائل بغير ذلك بحجة أن اختلاف الدين يفرق بين الأزواج كما هو الحال في ديننا، رددنا عليه بأن القرآن سماها امرأته في موطن صريح: {ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ

(١) مفاتيح الغيب ٣/٦١٤.

مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ} [سورة التحريم:١٠].

قال صاحب البحر: {إِلَّا عَجُوزًا} هي امرأة لوط، وكانت كافرة، إما مستترة بالكفر، وإما معلنة به. وكان نكاح الوثنيات عندهم جائزًا(١).

والذي أميل إليه أنها كانت مسلمة ثم انحرفت، إذ إنه ولو كان نكاح الوثنيات عندهم جائز لكنه يبعد في حق رجل صالح ونبي مرسل أن يكون، بدليل أن القرآن عبر عن كفرها بالخيانة {فَخَانَتَاهُمَا} وهل هناك خيانة أعظم من تبديل الدين!

وجاءت مواطن في القرآن بدون المؤكد، مما يدل أن وروده في بعضها كان لمثل هذا الغرض، ومن تلك المواطن قَوْلُه: {قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ} [سورة العنكبوت:٣٢].وقَوْله: {إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ} [سورة العنكبوت:٣٣].وقَوْله {فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ} [سورة الأعراف:٨٣].وقَوْله: {فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ} [سورة النمل:٥٧].إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

ب) انفكاك الفاصلة عن عرف معنوي:

من ذلك عدم مراعاة النظير بحيث لا يختم الآية الكريمة بما يناسب أولها، على طريقة يلتزمها في غالب مواضع أمثاله في الذكر الحكيم، كعدم ختم الآية بصفة تجانس من دار حديثها عنه، ولذا فإنه ليس من عادة المفسرين أن يبرروا سبب الختم بها إلا فيما خالف فيه القرآن التوقع، بانفكاكه عن عوائده النظمية تلك. ويكون في صور، منها:

١- أن يكون الحديث عن قوم، فلا يراعي في ختام الآية الصفة التي دار الحديث عنها:

وذلك في نحو قوله تعالى: {فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ} [سورة البقرة:٥٩].

فالمتوقع أن تختم الآية ب(يظلمون) إذ تصدرت بذكر الظلم، كما نطقت بذلك آية الأعراف في قوله تعالى: {فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ} [سورة الأعراف:١٦٢].

وفي ذلك يقول أبو جعفر الغرناطي (٧٠٨ه):" وجه ذلك والله أعلم أنه لما وصف اعتداؤهم نيطت بهم أولًا صفة الظلم، ومن المعلوم أن مواقعه تتسع، ثم لما ذكر من

(١) البحر المحيط ١٢٣/٩.

اعتدائهم وسوء مرتكبهم غير ما تقدم وتضاعف موجب وبيل جزائهم وصفوا بالفسق المنبئ عن حال أوبق من الظلم"[١].

ثم ذهب بعد ذلك يورد الشواهد الدالة على أن الفسق أخص من الظلم.

وقول الغرناطي متوافق مع ترتيب نزول السور، فالأعراف التي ورد فيها وصفهم بالظلم مكية والبقرة التي ورد فها وصفهم بالفسق مدنية. ومعلوم أن المكي سابق المدني في النزول.

٢- عدم المطابقة اللغوية بين الصفتين المتضادتين:

ومنه قوله تبارك اسمه: {قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} [سورة الجن:٢١].فالمتوقع قول نفعًا.

فقد كان في قوله (رشدًا) مخالفة للمتوقع، ولهذا ذهب المفسرون في تأويل هذا لمذاهب:

أ) منهم من قال إنّ التعبير بالضر والرشد مقصود في لفظه دون الغي والنفع؛ لاشتمال السورة على مظاهرهما [٢].

ب) ومنهم من جعله من قبيل الاحتباك، فقال: وفي الكلام احتباك؛ لأن الضر يقابله النفع، والرشد يقابله الضلال، فالتقدير: لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ولا ضلالا ولا رشدا[٣].

ج) ومنهم من جعل الضر مراد به الغي تعبيرًا باسم السبب عن المسبب، والمعنى لا أستطيع أن أضركم ولا أنفعكم إنما الضار والنافع هو الله عز وجل، أو لا أملك لكم غيًّا ولا رشدا ويدل عليه قراءة أُبي (غيًّا) بدل (ضرا) والمعنى لا أستطيع أن أقسركم على الغي والرشد، إنما القادر على ذلك هو الله سبحانه وتعالى[٤].

ومنه قوله تعالى: {قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا} [سورة الجن:٢٥].

إذ المتوقع أن يعبر ببعيد، كما في قوله تعالى: {وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ} [سورة الأنبياء:١٠٩].

وقد كشف الطيبي (٧٤٣ه) عن سر المخالفة هنا بقوله: "لما كان مهتمًّا بقرب الوعد، صرّح في الجزء الأول من الكلام ما كان مقتضيًا إثباته. وفي الجزء الثاني أطلق، على

(١) ملاك التأويل ٣٩/١.

(٢) التحرير والتنوير ٢٤٣/٢٩.

(٣) التحرير والتنوير ٢٤٣/٢٩.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب ٦٧٥/٣٠ وروح المعاني ١٠٤/١٥.

أنه غير ملبس أن المراد: ما أدري أهو حال متوقع في كل ساعة، أم مؤجل ضربت له غاية" [1].

٣-عدم الجري وفق ختامٍ جرى عرف النظم بأن تختم الفاصلة به، في المواطن المشابهة لذلك المعنى:

ومنه قوله تعالى: {وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ} [سورة فاطر:٣٤].

فالمتوقع أن يكون الختام ما يعبر عن رحمته بهم، وامتنانه عليهم، فلماذا انفك عن ذاك إلى ذكر المغفرة والشكر.

ولا ريب أن مثل هذا قد ذهب بالمفسرين الذين التمسوا غرض التعبير كل مذهب، خاصة ممن كان منهجهم في تقصي المناسبة، يدفعهم لقول ما يكون بعيدًا أحيانًا عن التصور.

يقول الرازي (٥٨٣ه) في سر هذا الختام:" (الغفور) إشارة إلى ما غفر لهم في الآخرة بما وجد لهم من الحمد في الدنيا، والشكور إشارة إلى ما يعطيهم ويزيد لهم، بسبب ما وجد لهم في الآخرة من الحمد"[2].

أما أبو حيان (٧٤٥ه) فإنه لما لم يتبين وجه المناسبة بين صفتي (غفور) و(شكور)، وما سبقهما من إظهار امتنان المؤمنين لربهم بعد دخولهم الجنة، ذهب يتلمس لها وجهًا على نطاق سياقي أوسع بربط معناهما بالتقسيم الوارد في الآية قبلها، وهي قوله: {ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ} [سورة فاطر:٣٢].

فقال: "لغفور: فيه إشارة إلى دخول الظالم لنفسه الجنة، وشكور: فيه إشارة إلى السابق وأنه كثير الحسنات"[3].

وفي كلام أبي حيان غمز لمذهب الزمخشري عفا الله عنه الذي واجه حرجًا ــ بسبب اعتزاله ــ في تعليل هذا الختام، إذ ذهب إلى أن الظالم لنفسه ليس من جملة الداخلين، وأنّ هذا الختم من قول السابقين حيث قال:"فلهذا أهمل الحديث عن المغفرة واكتفى بتعليل ذكر الشكر بقوله:" يريد بالمصطفين من عباده: أهل الملة الحنيفية، فإن قلت: فكيف جعلت جنات عدن بدلًا من الفضل الكبير الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك؟

(١) فتوح الغيب للطيبي ٧٢/١٦.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٤١/٢٦.

(٣) البحر المحيط ٣٤/٩.

قلت: لما كان السبب في نيل الثواب، نزل منزلة المسبب، كأنه هو الثواب، فأبدلت عنه جنات عدن، وفي اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر "(١).

وتعقبه الطيبي (٧٤٣ه) وأشار إلى تعقب صاحب الانتصاف، يقول:" ولعمري هذا بعيد عن الذوق، متعسف جدا، وما دعاه إليه إلا تصحيح مذهبه، ونحن معاشر أهل السنة نجعل المشار إليه بقوله: {ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ} [سورة فاطر:٣٢]. ما سبق من معنى الإيراث...ثم أخبر بثوابهم فقال: {جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا} [سورة فاطر:٣٣].يعني: الأصناف الثلاثة... وهذا أولى مما ذهب إليه (يعني الزمخشري) بوجوه "(٢).

ومنه قوله تعالى: {وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا} [سورة فاطر:٤٥].

فقد كان المتوقع أن يؤتى في الكلام بشيء مما جرى عليه العرف النظمي في القرآن مما نطقت به الآيات التي دارت حول هذا المعنى، كشيء يدل على مقاضاتهم ومؤاخذتهم والفصل بينهم إما بالإشارة إلى مناسبة وقوعه، أو شيء من خصائصه كسرعة إنجازه أو نحو ذلك مما جاءت به نظائره في القرآن الكريم، وذلك كما في قوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ} [سورة يونس:٤٧].وقوله: {وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ} [سورة النحل:٦١].

وبسبب هذا الجواب الذي خرج به النظم القرآني عن عادته لجأ بعض المفسرين إلى التقدير ليعيد النظم إلى معهوده.

يقول الطاهر بن عاشور (١٣٩٣ه):" والتقدير: فإذا جاء أجلهم أخذهم بما كسبوا فإن الله كان بعباده بصيرا، أي عليمًا في حالي التأخير ومجيء الأجل، ولهذا فقوله: فإن الله كان بعباده بصيرا دليل جواب (إذا) وليس هو جوابها، ولذلك كان حقيقا بقرنه بفاء التسبب، وأما ما في سورة النحل فهو الجواب وهو تهديد بأنهم إذا جاء أجلهم وقع بهم العذاب دون إمهال.

(١) الكشاف ٦١٢/٣.

(٢) فتوح الغيب ٦٥٣/١٢ــ٦٥٧.

وقوله: فإن الله كان بعباده بصيرا هو أيضا جواب عن سؤال مقدر أن يقال: ماذا جنت الدواب حتى يستأصلها الله بسبب ما كسب الناس، وكيف يهلك كل من على الأرض وفيهم المؤمنون والصالحون، فأفيد أن الله أعلم بعدله. فأما الدواب فإنها مخلوقة لأجل الإنسان كما قال تعالى: {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا } [سورة البقرة:٢٩].

فإهلاكها قد يكون إنذارا للناس لعلهم يقلعون عن إجرامهم، وأما حال المؤمنين في حين إهلاك الكفار فالله أعلم بهم فلعل الله أن يجعل لهم طريقًا إلى النجاة كما نجى هودًا ومن معه، ولعله إن أهلكهم أن يعوّض لهم حسن الدار"[(١)].

ومنه أيضًا قوله: {خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ} [سورة الزمر:٥].

فإنه جريًا على سنن العرف القرآني الذي يراعي مناسبة آخر القول لأوله كان المتوقع أن يقول: (ألا إنه على كل شيء قدير).

لذلك نرى أقوال المفسرين تتباين في البحث عن مناسبة مثل هذا.

ففي محاولة للبحث عن سبيل لوصفه بالقدرة المطلقة يقول الرازي (٥٨٣ه): "ولما ذكر الله هذه الأنواع الثلاثة من الدلائل الفلكية قال: {أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ} [سورة الزمر:٥].والمعنى أن خلق هذه الأجرام العظيمة وإن دل على كونه عزيزًا أي كامل القدرة إلا أنه غفار عظيم الرحمة والفضل والإحسان[(٢)].

وأما ابن عاشور (١٣٩٣ه) فيومئ إلى لازم من لوازم القدرة إذ يقول: "وصف العزيز كناية عن أنه يفعل ما يشاء لا غالب له".

ومنه قوله تعالى: {يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} [سورة التحريم:٨].فقد كان المتوقع أن تختم باستمطار الرحمة والغفران، كاسمي الله الغفور الرحيم.

يقول ابن عاشور:" وإتمام النور إدامته أو الزيادة منه على الوجهين المذكورين آنفا، وكذلك الدعاء بطلب المغفرة لهم هو لطلب دوام المغفرة، وذلك كله أدب مع الله وتواضع له مثل ما قيل في استغفار النبي ‘ في اليوم سبعين مرة.

(١) التحرير والتنوير ٣٤٠/٢٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٤٢٣/٢٦.

ويظهر بذلك وجه التذييل بقولهم: إنك على كل شيء قدير المشعر بتعليل الدعاء كناية عن رجاء إجابته لهم"[1].

ومنه قوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ} [سورة الانفطار:٦].

إذ كيف تكون صفة الكرم خاتمة آية توبيخ على الاغترار بالجبار المنتقم، الأمر الذين جعل مفسري البلاغيين يعانون في إثبات مناسبة هذا الختام لمعنى الآية التي ورد فيها.

فهذا الفخر الرازي (٥٨٣ه) يطنب شاحذاً كل طاقته العقلية وثقافته المنطقية ليكشف عن سر التعبير هنا، فيقول:" اعلم أنه سبحانه لما أخبر في الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر ذكر في هذه الآية ما يدل عقلا على إمكانه أو على وقوعه، وذلك من وجهين الأول: أن الإله الكريم الذي لا يجوز من كرمه أن يقطع موائد نعمه عن المذنبين، كيف يجوز في كرمه أن لا ينتقم للمظلوم من الظالم؟ الثاني: أن القادر الذي خلق هذه البنية الإنسانية ثم سواها وعدلها، إما أن يقال: إنه خلقها لا لحكمة أو لحكمة، فإن خلقها لا لحكمة كان ذلك عبثا، وهو غير جائز على الحكيم، وإن خلقها لحكمة، فتلك الحكمة، إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى أو إلى العبد، والأول باطل لأنه سبحانه متعال عن الاستكمال والانتفاع. فتعين الثاني، وهو أنه خلق الخلق لحكمة عائدة إلى العبد، وتلك الحكمة إما أن تظهر في الدنيا أو في دار سوى الدنيا. والأول باطل لأن الدنيا دار بلاء وامتحان، لا دار الانتفاع والجزاء، ولما بطل كل ذلك ثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى، فثبت أن الاعتراف بوجود الإله الكريم الذي يقدر على الخلق والتسوية والتعديل يوجب على العاقل أن يقطع بأنه سبحانه يبعث الأموات ويحشرهم، وذلك يمنعهم من الاعتراف بعدم الحشر والنشر، وهذا الاستدلال هو الذي ذكر بعينه في سورة التين حيث قال: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم إلى أن قال: {فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ} [سورة التين:٧].وهذه المحاجة تصلح مع العرب الذين كانوا مقرين بالصانع وينكرون الإعادة، وتصلح أيضا مع من ينفي الابتداء والإعادة معا، لأن الخلق المعدل يدل على الصانع وبواسطته يدل على صحة القول بالحشر والنشر.

فإن قيل: بناء هذا الاستدلال على أنه تعالى حكيم، ولذلك قال في سورة التين بعد هذا الاستدلال: {أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ} [سورة التين:٨].فكان يجب أن يقول في هذه السورة: ما غرك بربك الحكيم الجواب: أن الكريم يجب أن يكون حكيما، لأن إيصال النعمة إلى الغير لو لم يكن مبنيا على داعية الحكمة لكان ذلك تبذيرا لا كرما. أما إذا

(١) التحرير والتنوير ٣٧١/٢٨.

كان مبنيا على داعية الحكمة فحينئذ يسمى كرما، إذا ثبت هذا فنقول: كونه كريما يدل على وقوع الحشر من وجهين كما قررناه، أما كونه حكيما فإنه يدل على وقوع الحشر من هذا الوجه الثاني، فكان ذكر الكريم هاهنا أولى من ذكر الحكيم، هذا هو تمام الكلام في كيفية النظم"(١).

ويقول البيضاوي (٦٨٥هـ):" {مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ} [سورة الانفطار:٦].أي: أي شيء خدعك وجرأك على عصيانه؟ وذكر {ٱلۡكَرِيمِ} [سورة الانفطار:٦].للمبالغة في المنع عن الاغترار، فإن محض الكرم لا يقتضي إهمال الظالم، وتسوية الموالي والمعادي والمطيع والعاصي، فكيف إذا انضم إليه صفة القهر والانتقام؟ وعن الاشتغال بما به يغره الشيطان، ويقول: افعل ما شئت، فربك كريم لا يعذب أحدا ولا يعاجل بالعقوبة. وللدلالة على أن كثرة كرمه، تستدعي الجد في الطاعة لا الانهماك في المعصية اغترارا بكرمه"(٢).

ويقول الطيبي (٧٤٣هـ):" إنه تعالى لما بين أحوال القيامة بانفطار السماء وانتثار الكواكب وانفجار الأبحر والبعث عن القبور، ثم إطلاع كل نفس: برها وفاجرها على عملها، خيرها وشرها، نبه جنس الإنسان عن رقدة الغفلة وسنة الجهالة بقوله: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ} [سورة الانفطار:٦]., يعني: أيها الغافل، وراءك هذا الخطب الجسيم والخطر العظيم، وأنت قد اغتررت بما تكرم عليك ربك حيث خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك، فاشتغلت بذلك عن التزود لدار القرار، وأخلدت إلى دار الغرور، ولما كان مؤدى هذه الغفلة، الاغترار إلى الذهول عن المستقر الأصلي، نزله منزلة التكذيب بيوم الدين، حتى أضرب عنه بقوله: {كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ} [سورة الانفطار:٩].وهذا كما ترى من حال المتمادي في أمور الدنيا من المتسمين بالإسلام، إذا سمع شيئا من أمر الآخرة تقبض واشمأز لغاية انهماكه في لذات العاجلة. ونظيره في تهديد المطففين: {أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ} [سورة المطففين:٤].جعلهم أسوأ حالا من الكفار؛ لأنه تعالى أثبت للكفار ظنا في قوله: {إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ} [سورة الجاثية:٣٢].ونفاه عنهم"(٣).

ويقول الألوسي (١٢٧٠هـ):" والتعرض لعنوان كرمه تعالى دون قهره سبحانه من صفات الجلال المانعة ملاحظتها عن الاغترار للإيذان بأنه ليس مما يصلح أن يكون مدارا

(١) مفاتيح الغيب ٧٥/٣١.
(٢) أنوار التنزيل ٢٩٢/٥.
(٣) فتوح الغيب ٣٢٤/١٦.

لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له افعل ما شئت فإن ربك كريم قد تفضل عليك في الدنيا وسيفعل مثله في الآخرة، فإنه قياس عقيم وتمنية باطلة بل هو مما يوجب المبالغة في الإقبال على الإيمان والطاعة والاجتناب عن الكفر والعصيان دون العكس، ولذا قال بعض العارفين: لو لم أخف الله تعالى لم أعصه، فكأنه قيل: ما حملك على عصيان ربك الموصوف بما يزجر عنه وتدعو إلى خلافه؟ وقيل إن هذا تلقين للحجة وهو من الكرم أيضا فإنه إذا قيل له ما غرك إلخ. يتفطن للجواب الذي لقنه ويقول كرمه كما قيل يعرف حسن الخلق والإحسان بقلة الآداب في الغلمان ولم يرتض ذلك الزمخشري وكان الاغترار بذلك في النظر الجليل وإلا فهو في النظر الدقيق كما سمعت"[1].

(١) روح المعاني ٢٦٨/١٥.

خاتمة

إن المتفيأ ظلال شواهد هذا البحث يمكنه أن يهتدي لمجموعة من الخصائص التي لاحت على معارضها، ومن ذلك:

أ) أن النظم الكريم لا ينفك عن أعرافه التعبيرية إلا في قضايا بالغة الأهمية بحيث يمكن عدّ هذا الانفكاك معيارًا من معايير المعاني التي يريد النظم أن يؤطرها لخطورة شأنها في حياة المخاطبين، فيسلك النظم هذا المسلك ليشد انتباه المتلقين للمعنى الذي هو بصدده بحيث ما يفتح بابًا لتأمل ذلك المعنى.

ب) من قرائن الانفكاك في القرآن ملفوظ المعنى السابق للمعنى الذي حصل فيه انفكاك، كأن يكون في المعنى الأول مجازاة، فيقذف في روع المتلقي عند الحديث عن صنف مضاد له أن يرد الجزاء ضد الأول تمامًا.

ج) مما يعين على تقصي مواطن هذا البحث مقارنة شواهده التي انفكّ فيها النظم عن ظاهر عاداته النظمية خاصة، بمشابهاتها اللفظية في القرآن، تلك التي كانت موافقة للأعراف المشار إليها، فتكون بمثابة المتكأ الذي يستطيع مقارب النص أن يمسك من خلاله بخيوط الأسرار عند الانفكاك الوارد.

د) يدخل في انفكاك النظم القرآني عن عاداته التعبيرية مباحث بلاغية مهمة كالإضمار في موضع الإظهار وعكسه، وكذلك تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه، والاحتباك.

ه) هناك شواهد صالحة لأن تكون داخلة تحت أكثر من منحى من مناحي هذه الظاهرة في القرآن، وذلك كما في قوله تعالى: {أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم} [سورة الزمر:٢٢].

فهي صالحة لأن تكون شاهدًا على الانفكاك عن ذكر المعادل، والانفكاك عن ذكر الجواب، ولا مانع أن يكون الموضع الواحد شاهدًا على أكثر من مسألة في الفن الواحد كما ذكر المصنفون.

يقول الفخر الرازي (٥٨٣ه): "التقدير: أفمن شرح الله صدره للإسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته، والجواب متروك؛ لأن الكلام المذكور دل عليه، وهو قوله تعالى: {فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ} [سورة الزمر:٢٢]."(١).

و) يقدم السياق معونة كبيرة لإدارك أسرار انفكاك النظم عن أعرافه التعبيرية إذ ينبئ عن مقضيات الأحوال التي لها كل الأثر في بنائه يدرك ذلك بجلاء من أجال بصره في

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/٤٤٠.

شواهد هذا البحث لذا لا يمكن النظر في بلاغة هذا النوع من خلال اجتزاء الشاهد عن سياقه بل لا بد من النظر في مقتضيات المقام فهي من تدفع بهذا النوع من الانفكاك وترشد إلى أسراره، وهذا متبين في دراسة شواهد مسائل هذا البحث.

ز) أغراض الانفكاك النظمي في القرآن كثيرة، أشار إليها البحث في مواضع الشواهد، لكن مما يجب إبرازه، هو ميل الكتاب العزيز في أسلوب بيانه لتقديم المعاني المبشرات على المنفرات، وكريم الأحوال على غيرها، ما وسعه المقام ذلك، ففي مثل قوله تعالى: {لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [سورة البقرة:٢٥٦].

لم نجد ذكر للطرف المقابل لمن كفر بالطاغوت وآمن بالله، بل استرسل النظم في وصف المؤمنين ومزاياهم عند الله بما ذكر، وبقوله بعد ذلك: {ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ} [سورة البقرة:٢٥٧].وبعد أن أشبع حواس المخاطبين وأطرب أسماعهم بذكر ما امتاز به حزبه وأهله وخاصته ــ اكتفى بالإشارة السريعة لجزاء الكافرين الذين لم يستحقوا تفصيل حالهم، فلم يزد على أن جعل خاتمة الآية في وصف جزائهم، ليس لشيء إلا لاقتضاء المقام له، وإلا لطواه كما صنع مع مقدمة الكلام، إذ لم يشر حتى مجرد إشارة إلى حالهم.

ثبت المصادر والمراجع:

١. ابن خالويه. (١٤٠١ه). الحجة في القراءات السبع، تحقيق: عبدالعال سالم مكرم. لبنان دار الشروق، ، الطبعة الرابعة،.

٢. ابن سيده. (١٤٢١هـ) المحكم. المحقق: عبد الحميد هنداوي. الطبعة: الأولى بيروت: دار الكتب العلمية.

٣. ابن عاشور، محمد الطاهر. (١٩٨٤م) التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر.

٤. ابن عطية الأندلسي، أبومحمد عبد الحق. (١٤٢٢ هـ). المحرر الوجيز.ط١.بيروت: دار الكتب العلمية.

٥. ابن فارس، أبو الحسين أحمد. (١٣٩٩ه). مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون. القاهرة:دار الفكر.

٦. ابن قاسم، عبد الرحمن بن محمد (١٤١٠هـ) حاشية مقدمة التفسير.الطبعة: الثانية.

٧. ابن منظور، جمال الدين. (١٤١٤هـ). لسان العرب. الطبعة: الثالثة. بيروت: دار صادر.

٨. أبو المكارم، علي. (٢٠٠١م). الحذف والتقدير. ط١. القاهرة: دار غريب.

٩. أبوحيان. البحر المحيط. المحقق: صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر – بيروت، والطبعة: ١٤٢٠ هـ.

١٠. الأسعد، عدنان عبدالسلام. بلاغة الحذف التركيبي في القرآن الكريم الاحتباك أنموذجًا. الأردن: دار غيداء.

١١. الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني.(١٤١٥ ه). روح المعاني، في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية. ط١. بيروت:دار الكتب العلمية.

١٢. البدوي، البيلي. (٢٠٠٥م). من بلاغة القرآن. القاهرة: نهضه مصر.

١٣. البرهان، للزركشي. (١٣٧٦ه). تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم.ط١. بيروت: دار إحياء الكتب العربية.

١٤. البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور.القاهرة: دار الكتاب الإسلامي.

١٥. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي. (١٤١٨ هـ). أنوار التنزيل. المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط١. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٦. الثنيان، راشد بن حمود. (١٤٣٢ه). عادات القرآن الأسلوبية دراسة تطبيقية. ط١. الرياض: دار التدمرية.
١٧. الحسناوي، محمد. (١٤٢١ه). الفاصلة في القرآن. ط٢. الأردن: دار عمار.
١٨. الخطيب الإسكافي، أبوعبد الله محمد بن عبد الله. (١٤٢٢هـ). درة التنزيل وغرة التأويل. تحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين. ط١. مكة: جامعة أم القرى: معهد البحوث العلمية.
١٩. الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الحنفي. حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي. بيروت: دار صادر.
٢٠. الرازي، فخر الدين. (١٤٢٠ ه). مفاتيح الغيب. ط٣. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٢١. الرماني، أبوالحسن. (١٩٧٦م). النكت في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام. ط٣. مصر: دار المعارف.
٢٢. الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمرو بن أحمد. (١٤٠٧ ه). الكشاف. ط٣. بيروت: دار الكتاب العربي.
٢٣. السامرائي، فاضل. (١٩٩٨م). لمسات بيانية في القرآن. ط١. الأردن:دار عمار.
٢٤. الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله. (١٤٣٤هـ). فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب. تحقيق: إياد محمد الغوج. ط١. دبي: جائزة الدولية للقرآن الكريم.
٢٥. عباس، فضل حسن. إعجاز القرآن الكريم. مصر:دار النفائس للنشر والتوزيع.
٢٦. العكبري، أبو البقاء عبدالله بن الحسين. (١٤٠٧ه). التبيان في إعراب القرآن. ط٢. دار الجيل.
٢٧. علمي، عبد الله. بلاغة الفواصل القرآنية. مقال في الشبكة الإلكترونية.
٢٨. الغرناطي، أبوجعفر. ملاك التأويل. وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي. بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٩. الفارسي، أبوعلي. (١٤١٣ه). الحجة للقراء السبعة، تحقيق: بدر الدين قهوجي، مراجعة أحمد يوسف الدقاق، ط١. دمشق: دار المأمون.
٣٠. القنوجي،أبوالطيب محمد صديق خان. (١٤٢٣هـ) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم. ط١. دار ابن حزم.
٣١. محمود. المثنى عبد الفتاح. (٢٠١٠م) الفاصلة القرآنية والسجع. مجلة علوم الشريعة والقانون، المجلّد ٣٧ ،العدد ١.

٣٢. المطعني، عبد العظيم إبراهيم محمد. (١٤١٣ هـ). خصائص التعبير القرآني. ط١. القاهرة:: مكتبة وهبة.

٣٣. يخلف، فايزة (١٤٣٣ه). سيميائيات الخطاب والصورة. ط١. بيروت: دار النهضة العربية.

List the sources and references

١. abn khaluayhi. (١٤٠١hi). alhujat fi alqira'at alsabeu, tahqiq: eabdaleal salim makram. lubnan dar alsharuq, , altabeat alraabieati,.

٢. abn sayidha. (١٤٢١hi) almuhkamu. almuhaqaq: eabd alhamid hindawi. altabeatu: al'uwlaa bayrut: dar alkutub aleilmiati.

٣. abn eashur, muhamad altaahir. (١٩٨٤ma) altahrir waltanwir. tunis: aldaar altuwnusiat lilnashri.

٤. abn eatiat al'andalsi, 'abumuhamad eabd alhaq. (١٤٢٢ hu). almuharir alwijiz.ta١.birut: dar alkutub aleilmiati.

٥. abin fars, 'abu alhusayn 'ahmadu. (١٣٩٩ha). maqayis allughati, tahqiqu: eabdalsalam harun. alqahirat:dar alfikr.

٦. abin qasima, eabd alrahman bin muhamad (١٤١٠hi) hashiat muqadimat altafsiri.altabeati: althaaniati.

٧. abn manzurin, jamal aldiyn. (١٤١٤h). lisan alearbi. altabeatu: althaalithatu. bayrut: dar sadir.

٨. Abu Al-Makarem, Ali. (٢٠٠١ AD). Elimination and appreciation. i ١. Cairo: Dar Gharib.

٩. Abu Hayan. ocean sea. Investigator: Sidqi Muhammad Jamil. Publisher: Dar Al-Fikr - Beirut, Edition: ١٤٢٠ AH.

١٠. Al-Asaad, Adnan Abdel Salam. The rhetoric of syntactic deletion in the Noble Qur'an is a model. Jordan: Dar Ghaida.

١١. Al-Alusi, Shihab Al-Din Mahmoud bin Abdullah Al-Husseini. (١٤١٥ AH). The Spirit of Meanings, in the Interpretation of the Great Qur'an and the Seven Repetitions, achieved by: Ali Abdel Bari Attia. i ١. Beirut: House of Scientific Books.

١٢. Al-Badawi, Al-Baili. (٢٠٠٥ AD). From the eloquence of the Qur'an. Cairo: Nahdet Misr.

١٣. Al-Burhan, by Al-Zarkashi. (١٣٧٦ AH). Verified: Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim. ١st Edition. Beirut: House of Revival of Arabic Books.

١٤. Al-Buqa'i, Ibrahim bin Omar bin Hassan Al-Rabat. Arrange Al-Durar in proportion to verses and surahs. Cairo: Dar Al-Kitab Al-Islami.

١٥. Al-Baydawi, Nasser Al-Din Abu Saeed Abdullah bin Omar bin Muhammad Al-Shirazi. (١٤١٨ AH). Download lights. Investigator: Muhammad Abd al-Rahman al-Mara`ashli. i ١. Beirut: Arab Heritage Revival House.
١٦. Al-Thunayan, Rashid bin Hammoud. The stylistic habits of the Qur'an. Riyadh: Imam Muhammad bin Saud Islamic University.
١٧. Al-Hasnawi, Mohammed. (١٤٢١ AH). comma in the Qur'an. i ٢. Jordan: Dar Ammar.
١٨. Al-Khatib Shoemaker, Abu Abdullah Muhammad bin Abdullah. (١٤٢٢ AH). Dora download and surprise interpretation. Investigation and commentary: Dr. Muhammad Mustafa Aydin. i ١. Mecca: Umm Al-Qura University: Institute of Scientific Research.
١٩. Al-Khafaji, Shihab Al-Din Ahmed bin Muhammad bin Omar Al-Hanafi. Al-Khafaji's footnote on the interpretation of the oval. Beirut: Dar Sader.
٢٠. Al-Razi, Fakhr Al-Din. (١٤٢٠ AH). Unseen keys. i ٣. Beirut: Arab Heritage Revival House.
٢١. Al-Ramani, Abul-Hassan. (١٩٧٦ AD). Jokes in the Miracles of the Qur'an, achieved by: Muhammad Khalaf Allah, d. Mohamed Zagloul Hello. i ٣. Egypt: House of Knowledge.
٢٢. Al-Zamakhshari, Abu Al-Qasim Jarallah Mahmoud bin Amr bin Ahmed. (١٤٠٧ AH). Scout. i ٣. Beirut: Arab Book House.
٢٣. Al-Samarrai, Fadel. (١٩٩٨ AD). Graphic touches in the Qur'an. i ١. Jordan: Dar Ammar.
٢٤. Al-Tibi, Sharaf Al-Din Al-Hussein bin Abdullah. (١٤٣٤ AH). Fatouh unseen in the detection of the mask of suspicion. Investigation: Iyad Muhammad Al-Ghouj. i ١. Dubai: International Holy Quran Award.
٢٥. Abbas, Fadel Hassan. The miracle of the Holy Quran. Egypt: Dar Al-Nafaes for Publishing and Distribution.
٢٦. Al-Akbri, Abu stay Abdullah bin Al-Hussein. (١٤٠٧ AH). Clarification in the expression of the Qur'an. i ٢. Generation House.
٢٧. Alami, Abdullah. The eloquence of the Qur'anic commas. Article on the web.
٢٨. Al-Gharnati, Abu Jaafar. Angel of interpretation. Putting his footnotes: Abdel-Ghani Mohamed Ali Al-Fassi. Beirut: House of Scientific Books.
٢٩. Al-Farsi, Abu Ali. (١٤١٣ AH). The argument for the seven readers, investigation: Badr Al-Din Kahwaji, revised by Ahmed Youssef Al-Daqqaq, ١st ed. Damascus: Dar Al-Mamoun.

٣٠. Al-Qanouji, Abu Al-Tayyib Muhammad Siddiq Khan. (١٤٢٣ A.H.) Abjad Al-Ulum Al-Wushi marked in the statement of the conditions of sciences. i ١. Ibn Hazm House.

٣١. Mahmoud. Al-Muthanna Abdel-Fattah. (٢٠١٠ AD) Quranic comma and assonance. Journal of Sharia and Law Sciences, Volume ٣٧, Issue ١.

٣٢. Al-Muta'ni, Abdul Azim Ibrahim Muhammad. (١٤١٣ AH). Characteristics of Quranic expression. i ١. Cairo:: Wahba Library.